جوانب من حضارة بني حماد في القلعة وبجاية

أ. غرداوي نور الدين

أستاذ مساعد

قسم التاريخ / جامعة الجزائر 2

لم يكن تأسيس مدينة القلعة مجرد مصادفة تاريخية، فالدارس المتخصص للعمران، وتأسيس المدن الحضارية عبر مختلف العصور، والمتتبع لتاريخ المدن الرئيسية في العالم يقودنا إلى أن مكان هذه المدن كانت توجد مراكز سابقة حملت نفس الاسم أو تعددت أسمائها وأشكالها ومحتواها مع تعاقب الأيام وتوالي لأحداث، فنجد مثلا القاهرة امتداد للفسطاط التي شيدها عمر بن العاص وطنجة كانت قبيل الاستيطان الفينيقي مجموعة مداشر يقطنها سكان محليون والأمثلة أكثر من أن تحصر.

ومدينة المحمدية أو المسيلة هي إحدى المدن التي لعبت دورا هاما في حضارة المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط في العهد الحمادي الزيري، حيث وصفها أحد الرحالة بقوله:"...المحمدية مدينة بنواحي الزاب من أرض المغرب، ومدينة المسيلة بالمغرب يقال لها: أيضاً المحمدية اختطها محمد بن المهدي الملقب بالقائم في أيام أبيه، وذلك أن أباه أنفذه في جيش حتى بلغ تاهرت فقتل، وتملك ومر بموضع المسيلة فأعجبه فخط برمحه، وهو راكب فرسه صفة مدينة وأمر عليَ بن حمدون الأندلسي ببنائها وسماها المحمدية باسمه، وكانت خطة لبني كملان قبيلة من البربر فأمر بنقلهم إلى فحص القيروان فهم كانوا أصحاب أبي يزيد الخارجي عليه فأحكمها، ونقل إليها الذخائر، وذلك في سنة 315هـ، والمحمدية مدينة بكرمان في الإقليم الثالث طولها تسعون درجة، وعرضها إحدى وثلاثون درجة ونصف وربع..."[1].

تقع المسيلة التي أسست في حدود 313هـ/ 315هـ على نهر سهر، وقد تولى بناءها علي بن حمدون بن سماك بن مسعود بن منصور المعروف بابن الأندلسي[2].

---

[1] - ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج. 4، موقع الوراق http://www.alwarraq.com، المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني، 2007، ص. 56.

[2] - هو عبد الحميد بن سماك الجذامي الأندلسي، قدم ومن البيرة بالأندلس إلى منطقة بجاية والقبائل الصغرى، حيث انتصب دعاة الشيعة الإسماعيلية بإكجان وغيرها، وهذا الأخير من أصل يمني عاش طويلا بإسبانيا، فانقلب اسمه مصغرا إلى حمدون، ويذكر محمد العلوي في إحدى دراساته لبلاط ابن حمدون بالمسيلة بأنه عمل على نشر الدعوة الشيعية، ورجح رأيه هذا إلى ما عرفته المنطقة من فتن أثارها اليمنيون على الدولة الأموية بالبيرة واشبيلية، ويواصل افتراضاته على أنه قدم الأندلس مع الأجناد الشامية التي استقرت اسبانيا، كجند حمص أو دمشق أو قنسرين، كما لا يستبعد أن تكون له صلة بمراكز الدعوة الإسماعيلية باليمن أو بسلمية في سوريا. يراجع: محمد اليعلاوي، "بلاط بني حمدون بالمسيلة من خلال شعر ابن هاني"، مجلة الأصالة، العدد 24، 1975، ص ص. 49، 50.

تأسست في عهد الخليفة الفاطمي الثاني القائم بأمر الله، وكان ذلك ولي عهد أبيه المهدي الفاطمي عبيد الله[3] وسميت في بادئ الأمر بالمحمدية نسبة إلى اسمه أبو محمد. وقد اختار لها موقعا في مقاطعة الزاب بين سهول الحضنة في الجنوب وجبال المعاضيد في الشمال على الطريق الرابطة بين افريقية والمغرب، بين طبنة شرقا وأشيرا غربا، ليسهل له أمر مراقبة القبائل البربرية التي طال تمردها على السلطة الفاطمية الدخيلة، فهم أصحاب بدعة في مذهبهم يقدسون أئمتهم ويدعون لهم العصمة والهداية، إذن هم دخلاء على جمهور المغاربة الذين تعلقوا إما بالمالكية أو المذهب الخارجي الذي يسوي بين المؤمنين ولا يجعل للعربي فضلا عن العجمي ولا على البربري، فكذلك كان الخوارج من أكبر أعداء الفاطميين. فكانت قبائل زناتة، وخاصة بطون مغراوة وبرزال تقود الثورة تلك الأخرى ضدهم، مثلما حدث مع الثورة الكبرى التي قادها ضدهم صاحب الحمار، والتي كادت أن تؤدي بملكهم[4].

وأمدنا ابن خلدون بتلك التفاصيل التي مهدت لتأسيس مدينة المسيلة بقوله:"...ومر بمكان بلد المسيلة وبها بنو كملان من هوارة وكان يتوقع منهم الفتنة فنقلهم إلى فج القيروان وقضى الله أن يكونوا أولياء لصاحب الحمار عند خروجه ولما نقلهم أمر ببناء المسيلة في بلدهم وسماها المحمدية ودفع على بن حمدون الأندلسي من صنائع دولتهم إلى بنائها وعقد له عليها وعلى الزاب بعد اختطاطها فبناها وحصنها وشحنها... فكانت مددا للمنصور في حصار صاحب الحمار كما يذكر ثم انتقض موسى بن أبى العافية عامل فاس والمغرب وخلع طاعة الشيعة وانحرف..."[5].

فأصبح هذا الأخير واليا عليها وعلى كامل إقليم الزاب الذي كان يمتد جنوبا إلى الواحات وغربا إلى حدود صنهاجة بأشير وشرقا إلى قسم من الأوراس، وعلي بن حمدون هذا كان مع أخيه محمد وأبيهما حمدون من قواد الدولة الفاطمية ودعاتهما.

---

[3] - ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج. 4، ص. 107.

[4] - هو أبو يزيد مخلد بن كيداد وكان أبوه كيداد من أهل قسطيلة من مدائن بلد توزر وكان يختلف إلى بلاد السودان بالتجارة وبها ولد ولده أبو يزيد ونشأ بتوزر وتعلم القرآن وخالط النكارية من الخوارج وهم الصفرية فمال إلى مذهبهم وأخذ هبه ثم سافر إلى تاهرت وأقام بها يعلم الصبيان ولما صار الشيعي إلى سجلماسة في طلب المهدي انتقل هو إلى تقيوس وأقام يعلم فيها، وكان يذهب إلى تكبير أهل ملته واستباحة الأموال والدماء والخروج على السلطان ثم أخذ نفسه بالحسبة على الناس وتغيير المنكر سنة ست عشرة وثلاثمائة، فكثر أتباعه ولما مات المهدي خرج بناحية جبل أوراس وركب الحمار وتلقب بشيخ المؤمنين ودعا للناصر صاحب الأندلس من بني أمية فاتبعه أمم من البربر وزحف إليه عامل باغاية فلقيه في جموع البربر وهزمه وزحف إلى باغاية فحاصرها ثم انهزم عنها وكتب إلى بني واسى من قبائل زناتة بضواحي قسنطينة يأمرهم بحصارها فحاصروها سنة ثلاث وثلاثين، ثم فتح تبسة صلحا ومجانة كذلك وأهدى له رجل من أهل مرماجنة حمارا أشهب فكان يركبه وبه لقب، وكان يلبس جبة صوف قصيرة ضيقة الكمين، وكان عسكر الكتاميين على الأربس.... وخرب عمران افريقية من سائر الضواحي. يراجع: ابن خلدون، العبر، ج. 4، ص ص. 40، 41. ؛ محمد اليعلاوي، المرجع السابق، ص ص. 48، 49.

[5] - ابن خلدون، المصدر السابق، ص. 39.

وبعد وفاة الوالد حمدون، خلفه ابنه محمد في نشر الدعوة الشيعية وتوطيد أمر الدعوة، وهو الذي صحب الداعي الحلواني إلى بلاد كتامة، أما الابن الثاني علي فقد صحب المهدي عبيد الله من سجلماسة إلى رقادة، وخدم الدولة الناشئة إلى أن تم على يده تأسيس المسيلة فانتصب أميرا عليها[6].

وبعد وفاته سنة 334هـ/ 945م خلفه ابنه جعفر، وأمدنا ابن خلدون بالعديد من التطورات التي شهدتها فترة حكمه، نذكر منها:"...فنهض جعفر إلى المغرب سنة خمس وستين وضبطه واجتمع إليه ملوك زناتة من بني يفرن ومغراوة وملماسة ولما هلك الحكم وولى هشام وقام بأمره المنصور بن أبى عامر اقتصر لأول قيامه على سبتة من بلاد العدوة فضبطها جند السلطان ورجال الدولة وقلدها أرباب السيوف والأقلام من الأولياء والحاشية وعدل في ضبطه على ما وراء ذلك على ملوك زناتة ونفدهم بالجوائز والخلع وصار إلى إكرام وفودهم واثبات من رغب الإثبات في ديوان السلطان منهم فحدوا في ولاية الدولة وبث الدعوة وفسد ما بين هذين الأميرين جعفر وأخيه واقتطع يحيى مدينة البصرة لنفسه وذهب بأكثر الرجال ثم كانت على جعفر النكبة التي نكبته بنو غواطة في غزاته إياهم ثم استدعاه محمد بن أبى عامر لأول أمره لما رأى من الاستكانة إليه وشد أزره به عليه كراهته لما لقيه بالأندلس من الحكم ثم أصحبه وتخلى لأخيه عن عمل المغرب وأجاز البحر إلى ابن أبى عامر فحل منه بالمكان الأثير ولما زحف بلكين إلى المغرب سنة تسع وستين زحفته المشهورة خرج محمد بن أي عامر من قرطبة إلى الجزيرة لمدافعته بنفسه وأجاز جعفر بن على إلى سبتة وعقد له على حرب بلكين وأمده بمائة حمل من المال وانضمت إليه ملوك زناتة ورجع عنهم بلكين كما نذكره ولما رجع إلى ابن أبى عامر فاغتاله في بعض ليالي معا قرتهم وأعد له رجالا في طريقه من سمره إلى داره فقتلوه..."[7].

وموقع المدينة في بساط من الأرض كان عليها سوران بينهما جدول ماء جار يستدير بالمدينة، وكان لها أسواق وحمامات، وحولها بساتين كثيرة وكانت سهول المسيلة مشهورة خصوصا بإنتاج القطن والقمح والشعير والفواكه وتربية الحيوانات ولا سيما البقر والغنم والخيل، ومن هنا كثرة اللحوم ورخص أسعارها في عهد بن حماد، كما سنشير إليه فيما بعد.

ويذكر الإدريسي المحمدية بأنها كانت محل إعجاب زوارها، وتفخر خصوصا بنوع من السمك الصغير المزين بخطوط حمراء وأنه لم ير في بلاد الأرض المعمورة سمك على ضفته وهذا السمك الذي

[6] - محمد اليعلاوي، المرجع السابق، ص. 49.

[7] - ابن خلدون، المصدر السابق، ص. 84.

لا يتجاوز طوله الشبر كان يصطاد بكثرة[8] وينقل إلى قلعة بني حماد، حيث كان يزين موائد الملوك والأمراء، وبينهما اثنا عشر ميلاً[9].

وبالقرب من المسيلة، قام حماد بن بلكين بن زيري الصنهاجي بتأسيس مدينة القلعة في تكربوست في جبل كيانة[10] وهو جبل عجيسة، المسمى حاليا بالمعاضيد، عام 398هـ/ 1007م. وتم بناءها وتمصيرها على رأس المائة الرابعة، وشيد حماد بنيانها وأسوارها فاستبحرت في الحضارة، واتسعت في التمدن واستكثر فيها المساجد والفنادق، ورحل إليها من الثغور والقاصية والبلد البعيد طلاب العلم وأرباب الصنائع لنفاق أسواق العلم والمعارف والحرف، وبها تحل الرجال من العراق والحجاز وبحر الشام وسائر بلاد المغرب، وبها الأكسية القلعية الحسنة النسيج المطرزة بالذهب، ولصوفها من النعومة بحيث ينزل مع الذهب بمنزلة الإبرسيم[11].

واتخذها عاصمة لدولته الجديدة، فتحولت بسرعة إلى مركز هائل للعلم والثقافة والعمران، وبرز بها عدد كبير من فطاحل الفكر أمثال: الطبيب والفيلسوف بن عبد الله محمد بن علي بن الرمانة، ومحمد بن محمد الصنهاجي[12]. وأبو حفص عمر ابن أبي الحسين ابن الصابوني، وأبو القاسم ابن أبي مالك، وأبو عثمان ابن أبي سوار[13].

وقبل الحديث عن قلعة بني حماد التي تأسست في أواخر القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجريين، أنطلق من تساءل وإذا أجبنا عنه يمكن أن نتعرف على حضارة بني حماد في مرحلتها الأولى (398هـ-460هـ) وهو تاريخ تأسيس القلعة ومولد قوة بني حماد، وتعتبر هذه المرحلة الأساس التي بنيت عليه الحضارة الحمادية ونمت، حيث جنت ثمارها فيما بعد بجاية في المرحلة الثانية بعد انتقال العاصمة السياسية إلى بجاية.

---

[8] - الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج. 1، موقع الوراق http://www.alwarraq.com المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني، 2007، ص. 77.

[9] - نفسه.

[10] - يذكره أحد الجغرافيين عند تعرضه لبلاد المغرب بقوله: "...جبل كيانة بمقربة من المسيلة في البلاد الإفريقية، وهي جبال شاهقة ضيقة المسالك لا يستطاع الوصول إلى من فيها، وفي قلعة كيانة تحصن أبو يزيد مخلد بن كيداد النكار الخارج على بني عبيد، وهي قلعة منيعة لا ترام، وهي أمنع قلاعهم. ولما حاربه المنصور إسماعيل بن القائم العبيدي فأوى أبو يزيد إلى هذه القلعة ليعتصم بها، سأل الإدلاء عن السلوك إليها فكلهم ذكر صعوبة المسالك ووعرها...". يراجع: محمد بن عبد المنعم الحِميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، ط. 2، بيروت، 1980، ص. 504.

[11] - سليمان داود بن يوسف، حلقات من تاريخ المغرب الإسلامي، مطبعة أبو داود، الحراش، 1993، ص. 80.

[12] - يحيى بوعزيز، "جهود الجزائر الفكرية في موكب الحضارة العربية الإسلامية"، مجلة الأصالة، إصدار وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، العدد 19، الجزائر، 1974، ص. 290.

[13] - القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج. 2، موقع الوراق http://www.alwarraq.com المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني، 2007، ص. 63.

فما هو الأساس المادي لحضارة بني حماد؟ ومن أين جاءت المملكة بتلك الموارد التي أتيحت لقصور القلعة التي خلفت القيروان؟ وكيف انتقل ذلك البذخ والترف الذي عرفته القيروان إلى القلعة وأصبحت أكبر مركز حضاري في المغرب الإسلامي خلال النصف الأول من القرن الرابع الهجري؟ وكيف حلت بجاية محل القلعة والمهدية؟ وما هو سر اختفاء ذلك البذخ والترف الذي عرفته القلة في النصف الأول من القرن الخامس الهجري في ظرف قصير، لم تنعم به المنطقة لوقت طويل؟

والآن نأتي بالشواهد المادية والتاريخية لنجيب عن التساؤلات التي طرحناها حتى نثبت ما قلناه ونبرز الظروف والعوامل التي كانت وراء قيام الحضارة الحمادية بالقلعة ولا تكون في مكان آخر؟

الخطوة الأولى التي نبدأ بها حديثنا، هي معرفة الظروف التي تأسست فيها قلعة بني حماد، وتأثير العوامل الجغرافية والطبيعية، من موقع ومناخ وطبيعة الأراضي المحيطة بها، وصولا إلى الأوضاع السياسية التي عرفتها المنطقة قبل تأسيس القلعة، وبعدها بقليل حتى نتمكن من الإلمام بما نريد توضيحه للإجابة على تساؤلاتنا والوصول إلى هدف هذه الدراسة.

فعند تصفحنا لكتب البلدان والجغرافية والتاريخ، وجدنا بعض التفاسير لتساؤلاتنا التي نتمنى أن تكون صائبة ومقنعة للقراء.

فما هي مميزات جبال الحضنة بالمسيلة التي استقطبت قيام الدولة الحمادية وقيام حضارة خلفت حضارة القيروان التي نشأت منذ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب خلال القرن الأول الهجري وبقيت مسيطرة حتى بداية القرن الرابع الهجري، فقد كانت القيروان دوما محل استقطاب العلماء والتجار... والعدد الهائل من السكان لما تتوفر علية مظاهر الحضارة الراقية في تلك الفترة، فنجد مختلف القبائل المجاورة، سواء المتواجدة في الصحراء الوافدة إليها من الصحراء المحرقة الصعبة المسالك، أو من السواحل والغابات الباردة في الشمال، التي كانت تهددها الغارات النصرانية من البحر الأبيض المتوسط.

وتمتاز منطقة الحضنة قبل كل شيء بلطافة المناخ واعتدال الطقس وصفاء الجو، وتتعاقب الفصول بانتظام: في الشتاء تهطل الأمطار التي تغذي الأرض، وفي الربيع والخريف تهب الرياح المعتدلة التي تنعش الإنسان وتثير فيه النشاط، والإنسان في هذه المنطقة يستطيع أن يعيش في الهواء الطلق في معظم فترات السنة بفضل الشمس المشرقة.

وهذا ما أدى إلى تنوع خيرات وموارد المنطقة، ونستدل بما قاله عنها الإدريسي عند وصفه لمدينة طبنة بقوله:"...وطبنة مدينة الزاب، وهي مدينة حسنة كثيرة المياه والبساتين والزروع والقطن والحنطة والعير وعليها سور من تراب وأهلها أخلاط وبها صنائع وتجارات وأموال لأهلها متصرفة في ضروب من التجارات والتمر بها كثير وكذلك سائر الفواكه..."[14].

[14] - الإدريسي، المصدر سابق، ج. 1، ص. 80.

وهذه الخيرات نجدها في السهول الواقعة على نهر سهر، وفي الواحات المجاورة، على أن أغلب أراضي بلاد الحضنة هي تربة نفوذة، لطبيعة المنطقة باستثناء المناطق الجبلية، والأراضي المحاذية لنهر سهر، كما أن فصل الجفاف في هذه المنطقة كثيرا ما يبدأ قبل الأوان أو يستمر أكثر من المعتاد، ولذلك نرى الفلاحين هنا لا ينقطعون عن العمل ويعتادون على الصبر والجد ويضطرون إلى العناية بتربية الأغنام لأن المنطقة سهبية ملائمة لتربيتها، وما نلاحظه في الوقت الراهن من شهرة أغنام المسيلة والمناطق المجاورة لها كبني جلال إلا دليل على نجاح الرعي في المنطقة، حتى يتمكنوا من تعويض ما يخسرونه في زراعة الحبوب ولا تذهب جهودهم في حراثة الأرض سدى في حالة تعرض المنطقة للجفاف.

ومدينة المحمدية تمتاز بالحصانة الطبيعية للمدينة، حيث أن جبال الحضنة مستقلة عن المناطق المجاورة، تفصلها عن المناطق الشمالية جبال حمزة[15] وأشير، ومن الشرق جبال البرج والأوراس، ومن الغرب جبال بوكحيل الواقعة في سلسلة الأطلس الصحراوي، ومن الجنوب سهول وواحات الحضنة، وقد تنشأ عن هذه السلسة الجبلية المتعددة تضاريس متنوعة، نتيجة انحدارها إلى الجنوب، سرعان ما تصطدم بسلاسل جبلية أخرى تتجه من الشرق إلى الغرب[16] وقد نشأ عن هذا الاصطدام والتنوع الجيولوجي كثير من التموجات والانكسارات، كما تزداد الانهدامات والانخفاضات عددا وعمقا، فكانت النتيجة أن أصبحت بلاد الحضنة مؤلفة من مقاطعات عديدة منعزلة بعضها عن بعض تسكنها قبائل عديدة تنسب إلى بطن من البطون التي كانت لها مكانة كبيرة ببلاد المغرب الإسلامي[17].

وهذا ما أكده الجغرافيون القدامى عند تعرضهم لمكان بناء القلعة، حيث يذكر حصانة المنطقة الطبيعية خاصة حصن كيانة السالف الذكر التي بنيت فيه القلعة بقوله:" ... وهي جبال شاهقة ضيقة المسالك لا يستطاع الوصول إلى من فيها، وفي قلعة كيانة تحصن أبو يزيد مخلد بن كيداد النكار الخارج على بني عبيد، وهي قلعة منيعة لا ترام، وهي أمنع قلاعهم، ولما حاربه المنصور إسماعيل بن القائم

---

[15] - تسمى البويرة في وقتنا الحالي.

[16] - حيث يذكر صاحب كتاب الجغرافيا عند حديثه عن تضاريس المسيلة، جبل رحوبه الذي يمتد من المغرب إلى المشرق، ونذهب إلى حد القول أنه يقصد سلسلة الأطلس الصحراوي المعروفة في وقتنا هذا، ومن أهم جبال هذه السلسة بالمنطقة جبال بوكحيل. يراجع: ابن سعيد المغربي، الجغرافيا، ج. 1، موقع الوراقhttp://www.alwarraq.com، المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني،2007، ص. 27.

[17] - ومن أهما صنهاجة التي تفرعت منها عائلة بني حماد التي أسست القلعة، ثم بجاية. وأمدنا ابن خلدون بمعلومات جد وافية عنهم، بقوله:"...وهم شعوب كثيرة ما بين كزولة ولمتونة ومسراتة ولمطة ووريكة وعلى سمت هذه المفاوز شرقا أرض فزان، ثم مجالات أركار من قبائل. وهذا الجبل مطل على هذه البلاد كلها في هذا الجزء وهو قليل الثنايا والمسالك في هذه الناحية الغربية إلى أن يسامت وادي ملوية فتكثر ثناياه ومسالكه إلى أن ينتهي، وفي هذه الناحية منه أمم المصامدة ثم هنتانة ثم تينملك ثم كدميوه ثم مشكورة وهم آخر المصامدة فيه ثم قبائل صنهاكة وهم صنهاجة، وفي آخر هذا الجزء منه بعض قبائل زناتة ويتصل به هنالك من جوفيه جبل أوراس وهو جبل كتامة وبعد ذلك أمم أخرى من البرابرة نذكرهم في أماكنهم. يراجع: ابن خلدون، المصدر السابق، ج. 1، ص ص. 57، 59.

العبيدي فأوى أبو يزيد إلى هذه القلعة ليعتصم بها، سأل الإدلاء عن السلوك إليها فكلهم ذكر صعوبة المسالك ووعرها..."[18].

ومدينة المحمدية المجاورة لها تمتاز بتضاريس متنوعة، والتي يمكن اعتبارها كحاجز طبيعي، ونتج عن هذا التنوع ثروات وخيرات، حيث ذكر أحد الجغرافيين ذلك بقوله:" ...مدينة المسيلة، وهي محدثة بناها العبيديون على نهر سهر من أجمل الأنهار، وهو يمر بغربيها وتغوص مياهه في رمال الصحراء. وهي حيث الطول ثلاث وعشرون درجة وأربعون دقيقة والعرض تسع وعشرون درجة وخمس وأربعون دقيقة. والبلاد التي حولها مجالات لعرب رياح. وتمتد الصحاري في شرقيها إلى أن يكون جبل رحوبه الذي يمتد من المغرب إلى المشرق. ذكر بطليموس أن رأسه المغربي حيث الطول ثلاثون درجة وخمسون دقيقة والعرض ست وعشرون درجة ودقائق. ويخرج منه نهر يغوص في شماليه حيث الأرض السواخة التي هي كالصابون وطالما هلك فيها من أخذ جنوباً عن بلاد الجريد وكان جاهلاً بها. وحدّها من بلاد نفزاوه إلى الصحراء. ويقع في آخر هذا الجزء من بلاد الجريد وهي بلاد التمر مدينة قفصه. وهي قاعدة مشهورة بالنخيل، والفستق لا يكاد يوجد بالغرب إلا فيها، وبها من الفواكه المشمومات خواص كثيرة ومنها يجلب دهن البنفسج وخل العنصل[19].

إلا أنه على الرغم من ذلك ليست منعزلة بالمرة عن بقية المناطق المجاورة، بل هناك عدد كاف من الممرات والمنافذ التي تسمح بالاتصال والتي كانت تتسرب منها دوما مختلف القبائل المتاخمة لها، للوصول إلى حاضرة القيروان.

إضافة ذلك التيارات الباردة التي كانت تأتيها من سلسلة الأطلس التلي المحاذي للبحر الأبيض المتوسط والتي عملت على تلطيف الجو، وجلب الأمطار، وتنوع الخيرات والموارد، وفي ذلك يقول صاحب نزهة المشتاق:"...وكان الطريق من مدينة بجاية إلى القلعة، تخرج من بجاية إلى المضيق إلى سوق الأحد إلى وادي رهت إلى حصن تاكلات وبه المنزل وحصن تاكلات حصن منيع وهو على شرف مطل على وادي بجاية وبه سوق دائمة وبه فواكه ولحوم كثيرة رخيصة وبحصن تاكلات قصور حسان وبساتين وجنات ليحيى بن العزيز[20].

هذا التنوع ساعد على تعدد ثروات وخيرات القلعة سواء المحلية أو التي كانت تصل إليها من المناطق المجاورة، وأصبحت مركز حضاري خلف القيروان.

كل هذه العوامل التي ذكرناها ساعدت سكان الحضنة على تعلم فن الفلاحة، في حين كان لضيق بلاد الحضنة وفقر أراضيها في بعض الأحيان اللجوء إلى موارد أخرى، كتربية الأغنام، وغرس بعض

---

[18] - الحِميري، المصدر السابق، ص. 504.

[19] - ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ج. 1، ص. 27.

[20] - الإدريسي، المصدر السابق، ج. 1، ص. 80.

الفواكه، إضافة إلى الأكسية القلعية الحسنة النسيج المطرزة بالذهب، ولصوفها من النعومة بحيث ينزل مع الذهب بمنزلة الإبرسيم، كما ذكرناه سابقا.

ونذكر بعض الشواهد على ما قلناه من خلال ما تناوله بعض المؤرخين، حيث يذهب بعضهم في تحديد أقاليم بلاد المغرب، ويصور لنا طبيعة سطحها ومميزاته من خلال التعرض للتضاريس المنطقة بقوله:"... ومن جهة المغرب جبال متصلة بعضها ببعض إلى أن ينتهي إلى طرف خارج من البحر الرومي متأخر إلى آخر الجزء من الشمال وبين هذه الجبال ثنايا تسمى الدروب وهي التي تفضي إلى بلاد الأرمن، وفي هذا الجزء قطعة منها بين هذه الجبال وبين جبل السلسلة، فأما الجهة الجنوبية التي قدمنا أن فيها أسافل الشام وأن جبل اللكام معترض فيها بين البحر الرومي وآخر الجزء من الجنوب إلى الشمال..."[21].

من خلال ما قلناه نستنتج أن العوامل الطبيعية والجغرافية، إذا لم تكن وحدها كافية لخلق الحضارة فلا شك في أنها تساعد كثيرا على نشأت الحضارة وتطورها، كما أنها تؤثر تأثيرا عميقا في تكييفها وتكوين قسم كبير من صفاتها وطبعها بطابع خاص.

أما الظروف السياسية التي أسس فيها حماد بن بلكين بن زيري الصنهاجي القلعة وخروجه عن طاعة عمه المنصور، فهي معروفة ومتوفرة بكثرة عند كل المؤرخين والكتاب الذين اهتموا بالحضارة الحمادية ولا داعي لذكرها وهذا لتجنب الإطناب، وسنوجز منها بعض الشيء للتوضيح فقط.

نبدأ حديثنا انطلاقا من محاضرة للشيخ المهدي البوعبدلي في توطئته لمقال حول بجاية في العهد الحمادي[22] حيث يذكر أنه شاءت الأقدار أن تسقط القيروان وصقلية فتستفيد القلعة من ذلك، حيث لجأ إليها جل علماء القيروان وتجارها وصناعها، وكانت القاعدة التجارية العظمى.

واستدل كلامه بما قاله في شأنها أحد الرحالة: "... قلعة كبيرة ذات منعة وحصانة، تمصرت عند خراب القيروان انتقل إليها أكثر أهل افريقية، وهي اليوم مقصد التجار، وبها تحل الرحال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب، وهي اليوم مستقر مملكة صنهاجة..."[23].

وأمدتنا كتب الرحالة والجغرافيا بالعديد من التفاصيل حول جوهرة الزاب، حيث جاء في إحداها:"... هي قلعة أبي طويل، وبينها وبين المسيلة اثنا عشر ميلاً، وهي من أكبر البلاد قطراً وأكثرها خلقاً وأغزرها خيراً، وأوسعها أموالاً، وأحسنها قصوراً ومساكن، وأعمها فواكه وخصباً، وحنطتها رخيصة ولحومها طيبة سمينة، وهي في سند جبل سام صعب المرتقى، وقد استدار سورها بجميع الجبل وأعلى الجبل بسيط من

[21] - ابن خلدون، المصدر السابق، ج. 1، ص. 67.

[22] - المهدي البوعبدلي، "الحياة الفكرية ببجاية في عهد الدولتين الحفصية والتركية وآثارها"، مجلة الأصالة، إصدار وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، العدد 19، الجزائر، 1974، ص. 133.

[23] - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشر البارون دوسلان، الجزائر، 1857، ص. 82.

الأرض ومنه ملكت القلعة، وبهذه القلعة عقارب كثيرة سود تقتل في الحال، وأهل القلعة يتحرزون منها ويتحصنون من ضررها ويشربون لها نبات الفوليون، ويدعون أن من شرب وزن درهمين منه لعام كامل لا يصيب شاربه ألم تلك العقارب، وهذا مشهور عندهم، وهذه الحشيشة ببلاد القلعة كثيرة، وبين هذه القلعة وبين بجاية مسيرة أربعة أيام..."[24].

وبمنافسة القيروان في أمجادها السياسية والعلمية والعمرانية أسس حماد بن بلكين عاصمته الجديدة "القلعة" التي كانت تسمى أبى طويل التي اشتهرت في ما بعد بقلعة بني حماد، أنشأها في مكان يفوق أشير حربيا واقتصاديا يقيه شر هجمات زناتة وبأس باديس إن أراده بشر متأثر بدسائس بلاطه، تم إنشائها والتحول إليها في مدة قصيرة 398هـ/ 400هـ، حيث يذكرها أحد الجغرافيين بقوله:"...هي قلعة كبيرة ذات منعة وحصانة وتحضرت عند خراب القيروان، وانتقل إليها أكثر إفريقية، وكانت مقصداً للتجار وتحل بها الرحال من العراق والحجاز والشام ومصر وبلاد المغرب، وكانت مستقر مملكة صنهاجة..."[25].

فما هي الظروف السياسية التي عرفتها المنطقة قبل تأسيس القلعة ؟

فعند رجوعنا إلى المصادر والمراجع التي تناولت تاريخ بني حماد نجدها أجمعت على أنه لما عزم المعز لدين الله الفاطمي نقل عاصمة الدولة الفاطمية من بلاد المغرب إلى مصر واختياره لعامله **بلكين بن زيري** خليفة للدولة الفاطمية بالمغرب الإسلامي، وكان لبلكين هذا ولدا يسمى **حماد**، ولما توفى سنة 372هـ خلفه ولده المنصور الذي انتقل من العاصمة الثانية أشير إلى عاصمة المملكة المركزية القيروان، وكان من نتيجة هذا الانتقال تآمر أفراد عشيرة بني زيري على المنصور وثورتهم عليه، فحين إذ انتصر حماد لأخيه المنصور وقمع الثورات فاعترف له المنصور بمواقفه الحاسمة وأقطع له أشير وما أحيط بها وعينه عاملا عليها[26].

ويذكر ابن خلدون خبر دولة آل حماد بالقلعة من ملوك صنهاجة الداعين لخلافة العبيديين، وما كان لهم من الملك والسلطان بافريقية والمغرب الأوسط إلى حين انقراضهم على يد الموحدين بقوله:"... هذه الدولة شعبة من دولة آل زيرى وكان المنصور بلكين قد عقد لأخيه حماد على أشير والمسيلة وكان يتداولها مع أخيه يطوفت وعمه أبى البهار ثم استقل بها سنة سبع وثمانين أيام باديس من أخيه المنصور ودفعه لحربز ناتة سنة خمس وتسعين بالمغرب الأوسط من مغرواة وبنى يفرن، وشرط له ولاية أشير والمغرب الأوسط وكل بلد يفتحه وأن لا يستقدمه فعظم عناؤه فيها وأثخن في زناتة وكان مظفرا عليهم واختط مدينة القلعة بجبل كتامة[27] سنة ثمان وتسعين وهو جبل عجيسة وبه لهذا العهد قبائل عياض من

---

[24] - الإدريسي، نزهة المشتاق، ج. 1، ص. 77.؛ الحِميري، المصدر السابق، ص. 496.

[25] - الحِميري، المصدر السابق، ص. 470.

[26] - المهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص. 133.

[27] - المقصود جبل كيانة وليس كتامة.

عرب هلال ونقل إليها أهل المسيلة وأهل حمزة وخربهما ونقل جراوة من المغرب وأنزلهم بها وتم بناؤها وتمصرها على رأس المائة الرابعة وشيد من بنيانها وأسوارها واستكثر فيها من المساجد والفنادق فاستبحرت في العمارة واتسعت في التمدن ورحل إليها من الثغور والقاصية والبلد البعيد طلاب العلوم وأرباب الصنائع لنفاق أسواق المعارف والحرف والصنائع بها ولم يزل حماد أيام باديس هذا أميرا على الزاب والمغرب الأوسط ومتوليا حروب زناتة، وكان نزوله ببلد أشير والقلعة مناقما لملوك زناتة وأجيالهم البادية بضواحي تلمسان وتاهرت وحاربه بنو زيرى عند خروجهم على باديس سنة تسعين وثلاثمائة وهم راوي وماسكن وإخوانهما فقتل ما سكن وابناه وألجأ راوي وإخوته إلى جبل شنوه وأجازهم البحر إلى الأندلس ثم إن بطانة باديس ومن إليه من الأعاجم والقرابة نفسوا على حماد رتبته وسعوا في مكانه من باديس إلى أن فسد ذات بينهما وطلب باديس أن يسلم عمل يتحست وقسنطينة لولده المعز لما قلده الحاكم ولاية عهد ابنه فأبى حماد وخالف دعوة باديس وقتل الرافضة وأظهر السنة ورضي عن الشيخين ونبذ طاعة العبيديين جملة وراجع دعوة آل العباس وذلك سنة خمس وأربعمائة وزحف إلى باجة فدخلها بالسيف ودس إلى أهل تونس الثورة على المشارقة والرافضة فبادوا لهم فناصبه باديس الحرب وعبى عساكره من القيروان وخرج الفيئة فنزع عن حماد أكثر أصحابه مثل بني أبى واليل أصحاب معرة من زنانه وبنى حسن كبار صنهاجة وبنى يطوفت من زناتة وبنى عمرة أيضا منهم وفر حماد وملك باديس أشير ولحق حماد بشلف بني واليل وباديس في أتباعه حتى نزل ماطين، فحصر السرسوا من بلاد زناتة، ونزل إليه عطية بن داقلتن في قومه من بني توين لما كان حماد قتل أباه وجاء على أثره ابن عمه بدر بن لقمان من المعتز فوصلهما باديس واستظهر بهما على حماد ثم أجاز إليه باديس وادي شلف وناجزه الحرب ونزع إليه عامة أهل معسكره، فانهزم وأغذ السير إلى القلعة وباديس في أثره حتى نزل فحاصر المسيلة وانحجر حماد في القلعة وحاصره ثم هلك بمعسكره من ذلك الحصار فجأة بصرية وهو نائم بين أصحابه آخر ست وأربعمائة فباعت صنهاجة لابنه المعز صبيا ابن ثمان سنين وتلاقوا من أشير وبعثوا كرامة بن منصور لسدها فلم يقدر واقتحمها عليه حماد واحتملوا باديس على أعواده إلى مدفنهم بالقيروان وبايعوا المعز بالبيعة التامة وزحف إلى حماد بناحية قفصة وأشفق حماد فبعث ابنه القائد لإحكام الصلح بينه وبين المعز فوصل إلى القيروان سنة ثمان وأربعمائة بهدية جليلة وأمضى له المعز ما سأله من الصلح ورجع إلى أبيه وهلك حماد سنة تسعة عشر وأربعمائة فقام بأمره ابنه القائد وكان حمارا فاختار أخوه يوسف على المغرب وريعلان على حمزة بلدا حيطة حمزة بن إدريس وزحف إليه حمامة بن زيري بن عطية ملك قفاس من مغراوة سنة ثلاثين فخرج إليه القائد وسرب الأموال في زناتة وأحس بذلك حمامة فصالحه ودخل في طاعته ورجع إلى فاس وزحف إليه المعز من القيروان سنة أربع وثلاثين وحاصره مدة طويلة ثم صالحه القائد وانصرف إلى أشير فحاصرها ثم أقلع عنها وانكفأ راجعا، وراجع القائد طاعة العبيديين لما نقم عليه المعز ولقبوه شرف الدولة وهلك سنة ست وأربعين وولى ابنه محسن وكان جبارا وخرج عليه عمه يوسف ولحق بالمغرب فقتل سائر أولاد حماد وبعث محسن في طلبه بلكين ابن عمه محمد بن حماد وأصحبه من العرب خليفة بن بكير

وعطية الشريف وأمرهما بقتل بلكين في طريقهما فأخبرا بلكين بذلك وتعاهدوا جميعا على قتل محسن ونذر بهم ففر إلى القلعة وأدركوه فقتله بلكين لتسعة أشهر من ولايته وولى الأمر سنة سبع وثلاثين وكان شهما قرما حازما سفاكا للدماء، وقتل وزير محسن الذي تولى قتله وفى أيامه قتل جعفر بن أبى رماز مقدم بسكرة لما أحس بنكثه فحالف أهل بسكرة باثر ذلك حسبما نذكره ثم مات أخوه مقاتل بن محمد فاتهم به زوجته ناميرت بنت عمه علناس بن حماد فقتلها وأحفظ ذلك أخاها الناصر وطوى على التبييت وكان بلكين كثيرا ما يردد الغزو إلى المغرب وبلغه استيلاء يوسف بن تاشفين والمرابطين على المصامدة، فنهض نحوهم سنة أربع وخمسين وفر المرابطون إلى الصحراء وتوغل بلكين في ديار المغرب ونزل بفاس واحتمل من أكابر أهلها وأشرافهم رهنا على الطاعة وانكفأ راجعا إلى القلعة فانتهز منه الناصر ابن عمه الفرصة في الثار بأخته وما لاه قومه من صنهاجة لما لحقهم من تكلف المشقة بإبعاد الغزو والتوغل في أرض العدو فقتله بتسالة سنة أربع وخمسين وقام بالأمر من بعده واستوزر أبا بكر بن أبى الفتوح وعقد على المغرب لأخيه كباب وأنزله بلبا وعلى حمزة لأخيه ورمان وعلى تعارس لأخيه خزر وكان المعز قد هدم سورها فأصلحه الناصر وعقد على قسنطينة لأخيه بلباز وعلى الجزائر وسوس الدحاج لابنه عبد الله وعلى أشير لابنه يوسف وكتب إليه حمو بن مليل البرغواطى من صفاقس بالطاعة وبعث إليه بالهدية ووفد عليه أهل قسنطينة ومقدمهم يحيى بن واطاس فأعلنوا بطاعته وأجزل صلتهم وردهم إلى أماكنهم وعقد عليها اليوسف ابن خلوف من صنهاجة ودخل أهل القيروان أيضا في طاعته وكذلك أهل تونس وكان أهل بسكرة لما قتل بلكين مقدمهم جعفر بن أبى رماز خلعوا طاعة آل حماد واستبدوا بأمر بلدهم وعليهم بنو جعفر فسرح الناصر إليهم خلف بن حيدرة وزيره ووزير بلكين قبله فنازلها وافتتحها عنوة واحتمل بنى جعفر في جماعة من رؤسائها إلى القلعة فقتلهم الناصر وصلبهم ثم قتل خلف بن أبى حيدرة بسعاية رجالات صنهاجة فيه انه لما بلغه خبر بلكين أراد تولية أخيه معمر وشاورهم فيذلك فقتله الناصر وولى مكانه أحمد بن جعفر ابن أفلح ثم خرج الناصر ليتفقد المغرب فوثب علي بن ركان على تافربوست دار ملكهم وكان لما قتل بلكين هرب إلى إخوانه من عجيسة واهتبوا الغرة في تافربوست لغيبة الناصر فطرقوها ليلا وملكها على فرجع الناصر من المسيلة وعاجلهم، فسقط في أيديهم وافتتحها عليهم عنوة وذبح علي بن ركان نفسه بيده ثم وقعت بين العرب الهلاليين فتن وحروب ووفد عليه رجالات الأثبج صريخا به على رياح فأجابهم ونهض إلى مظاهرتهم في جموعه من صنهاجة وزناتة حتى نزل للأريس وتواقعوا بسببه..."[28].

وبعد موت المنصور سنة 385هـ خلفه ولده باديس، وظهر في الأفق زيري بن عطية المغراوي[29] فتصدى حماد لمحاربته، وكانت الغلبة لزيري الذي حاصر أشير، في ظل هذه الظروف فكر حماد في

[28] - ابن خلدون، المصدر السابق، ج. 6، ص ص. 171، 172، 173.

[29] - هو من بقايا ملوك مغراوة الذين قضى على دولتهم بلكين سنة 360هـ.

تعزيز حصن أشير بحصن آخر، فكان حصن كيانة[30](30) الذي استحال إلى **قلعة بني حماد**، وكان بناء هذا الحصن بإعانة باديس.

ونستنتج من خلال ما قلناه أن القلعة بنيت على أنقاض أشير، حيث وصفها أحد الرحالة بقوله: "..أشير: بكسر ثانيه وياء ساكنة وراء. مدينة في جبال البربر بالمغرب في طرف إفريقية الغربي مقابل بَجايةَ في البر، كان أول من عمرها زِيرِي بن مَناد الصنهاجي وكان سيد هذه القبيلة في أيامه وهو جد المعز بن باديس وملوك إفريقية بعد خروج الملقب بالمعز منها وكان زيري هذا في بدء أمره يسكنُ الجبال ولما نَشأ ظهرَت منه شجاعة أوجَبَتَ له أن اجتمع إليه طائفة من عشيرته فأغار بهم على من حوله من زناتة والبربر ورُزِق الظفرَ بهم مرة بعد مرة فعظُمَ جمعه وطالبته نفسُه بالإمارة وضاق عليه وعلى أصحابه مكانُهم فخرج يرتاد له موضعاً ينزله فرَأى أشيرَ وهو موضع خالٍ وليس به أحد مع كثرة عيونه وسعة فضائه وحُسن منظره فجاء بالبنائين من المدن التي حوله وهي المَسيلة وطُبنَة وغيرهما وَشَرَعَ في إنشاءِ مدينة أشير وذلك في سنة 324هـ، فتمت على أحسن حال وعمل على جبلها حصناً مانعاً ليس إلى المتحصن به طريق إلا من جهة واحدة تَحميه عشرة رجال وحَمى زيري أهل تلك الناحية وزرع الناس فيها وقَصَدَها أهل تلك النواحي طلباً للأمن والسلامة فصارت مدينة مشهورة وتملكها بعده بنو حَماد وهم بنو عم باديس واستولوا على جميع ما يجاورها من النواحي وصاروا ملوكاً لا يُطُون أحداً طاعةً وقاوَموا بني عَمهم ملوكَ إفريقية آل باديس، ومن أشير هذه الشيخ الفاضل أبو محمد عبد الله بن محمد الأشيري إمام أهل الحديث والفقه والأدب بحَلَبَ خاصة وبالشام عامةً استدعاه الوزير عون الدين أبو المظفر يحيى بن محمد بن هُبيرة وزير المقتفي والمستنجد وطلبه من الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي فسيره إليه وقرأ كتاب ابن هبيرة الذي صنْفه وسماه الإيضاح في شرح معاني الصحاح بحضوره وجَرَتْ له مع الوزير منافرة في شيءٍ اختلفا فيه أغضبَ كل واحد منهما صاحبه ورَدِفَ ذلك اعتذار من الوزير وبَره براً وافراً ثم سار من بغداد إلى مكة، ثم عاد إلى الشام فمات في بقاع بعلبك في سنة 561هـ[31].

وذكر ابن خلدون في تاريخه تأسيس مدينة القلعة، عند حديثه عن الصراعات التي عرفتها الخلافة العباسية في المشرق، وعندما وصل بسرد تلك الصراعات والنزاعات إلى بلاد المغرب يذكر الصراع الذي حصل بين الأسرة الصنهاجية الحاكمة التي خلفت الفاطميين عند رحيلهم إلى مصر، والتي تشكلت على إثرها الدولة الحمادية بقوله:"... كذلك انقسمت دولة بني العباس بدول أخرى: وكان بالقاصية بنو سامان فيما وراء النهر وخراسان، والعلوية في الديلم وطبرستان، وآل ذلك إلى استيلاء الديلم على العراقيين وعلى

[30] - يذكر المهدي البوعبدلي نقلا عن ابن خلدون بأنه يعرف بجل عجيسة بني على أنقاض حصن روماني، وبسفوحه تسكن قبيلة عياض العربية. يراجع: المهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص. 134.

[31] - ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج. 1، ص. 135.

بغداد والخلفاء. ثم جاء السلجوقية فملكوا جميع ذلك. ثم انقسمت دولتهم أيضاً بعد الاستفحال كما هو معروف في أخبارهم.

وكذلك اعتبره في دولة صنهاجة بالمغرب وإفريقية، لما بلغت إلى غايتها أيام باديس بن المنصور، خرج عليه عمه حماد واقتطع ممالك الغرب لنفسه، ما بين جبل أوراس إلى تلمسان وملوية، واختط **القلعة** بجبل كتامة[32] حيال المسيلة، ونزلها واستولى على مركزهم أشير بجبل تيطري، واستحدث ملكاً آخر قسيماً لملك آل باديي، وبقي آل باديس بالقيروان وما إليها، ولم يزل ذلك إلى أن انقرض أمرهما جميعاً[33].

ونستنتج إزاء هذا الوضع وعدم الاستقرار، أن يفكر الخلفاء الفاطميين في تأسيس القلاع والحصون استعدادا للطوارئ، ولهذا الغرض أنشأت المسيلة.

ويذكر صاحب الروض المعطار في خبر الأقطار أنها تحولت في بضع سنين من عاصمة ولاية إلى عاصمة دولة وما زالت في نمو مطرد حتى أصبحت مقصد التجار وبها تحل الرحال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب[34].

والتجأ إليها بعد خراب القيروان وانهيار دولتها جموع من اللاجئين وغصت بالعلماء، وكانت في أوج عزها وقوتها.

فهذا الشاعر الحمادي ابن هاني يمدح تشييد العمران بالزاب، فيمجد القصر الذي بناه جعفر لابنه إبراهيم، في حين يجهل موقعه بالضبط، حيث يقول فيه:

ألكني إلى القصر تحية فقد حدث الركبان عنه فأكثروا

ويعود إلى وصفه في العديد من المرات في أماكن مختلفة من شعره، ويقارنه بقصور الأكاسرة في العراق، ويفضله عليها، ويستعمل كلمة "إيوان" الفارسية فيقول[35]:

إيوان ملك لو رأته فارس ذعرت وخر لسمكه إيوانها

سجدت إلى النيران أعصرها ولو بصرت به سجدت له نيرانها.

ومن خلال ما قلناه نستنتج أنه شبه الزاب بالعراق، والمسيلة ببغداد، ويصور لنا الحياة الأنيقة بالزاب، والتي ورثتا القلعة بعد تأسيسها.

---

[32] - المقصود هنا جبل كيانة وليس كتامة. سبق الحديث عنه.

[33] - ابن خلدون، المقدمة، ص. 158.

[34] - الحميري، المصدر السابق، ج. 1، ص. 470.

[35] - نقلا عن محمد اليعلاوي، المرجع السابق، ص. 56.

ويرجح صاحب مقال بلاط بني حمدون بالمسيلة ذلك البذخ إلى الأمراء الأوائل الذين حكموا المسيلة ذوي الأصل الأندلسي، وإحلال العوائد الأندلسية بالمسيلة، والعلاقة بين المسيلة والأندلس على الصعيد الحضاري على الأقل لم تنقطع، كما أنه لم يغفل عن الهدايا التي يتعاطاها الأخوان، فحتى الجواري التي كانت تهدى من الأخوين لم يغفل عنها، ومن بين مميزات شعر ابن هاني هذا، نسبة الشعر الخمري في قصائد المسيلة أكثر منها في قصائد القيروان، فهذا دليل على حياة اللهو في المسيلة والزاب وحياة الجد في بلاط المعز في القيروان.

وأمدنا محمد اليعلاوي[36] بإحدى أبيات قصائده الخمرية في مدحه لجعفر:

وقهوة مزة معتقة من عهد نوح أو عهد أرفخشد

وقال أيضا:

تسمع في دنها إذا هدرت قراة قرش صليبة هجد

وعرفت القلعة العديد من الاضطرابات في عهد مؤسسها حماد، خاصة بين باديس وعمه حماد، كانت من نتائجها خلع حماد طاعة الفاطميين والبراءة من مذهبهم ومبايعة خلفاء بني العباس ببغداد والبراءة من مذهبهم ومبايعة خلفاء بني العباس ببغداد ومبادلة الهدايا والرسائل معهم[37]. فحين إذ أعلن عليه باديس الحرب وقعت بينهما عدة معارك، كما فاجأها زحف أعراب بني هلال واحتلالهم بسائطها بعد هزيمة ملكها الناصر في معركة ضدهم في **سبيبة** سنة 457هـ، فأسس الناصر بجاية سنة 460هـ فرارا منهم، وانتقل إليها في السنة الموالية، وأخذ الضعف يتسرب إلى القلعة وان بقيت عمرانها إلى أن حرق جيش الموحدين مساكنها سنة 547هـ، واستولى الأعراب على جبالها فخربت.

وهو ما أكدته لنا بعض المصادر بتفاصيل خراب القلعة وسر اختفاء ذلك البذخ والترف الذي عرفته القلة في النصف الأول من القرن الخامس الهجري بقولها:"... وأما مدينة بجاية في ذاتها فإنها عمرت بخراب القلعة التي بناها حماد بن بلكين وهي التي تنسب دولة بني حماد إليها والقلعة كانت في وقتها وقبل عمارة تجارية دار الملك لبني حماد وفيها كانت ذخائرهم مدخرة وجميع أموالهم مختزنة ودار أسلحتهم والحنطة تختزن بها فتبقى العام والعامين لا يدخلها الفساد ولا يعتريها تغيير وبها من الفواكه المأكولة والنعم المنتخبة ما يلحقه الإنسان بالثمن اليسير ولحومها كثيرة وبلادها وجميع ما ينضاف إليها تصلح فيها السوائم والدواب لأنها بلاد زرع وخصب وفلاحتهم إذا كثرت أغنت وإذا قلت كفت فأهلها أبد الدهر شباع وأحوالهم صالحة وقد ذكرنا حالها وصفتها في ذات بنائها فيما تقدم لنا وهي متعلقة بجبل عظيم مطل عليها وقد احتوى سورها المبني على جميع الجبل المذكور طولاً وعرضاً وأمامها في جهة الجنوب

[36] - بلاط بني حمدون بالمسيلة من خلال شعر ابن هاني الأندلسي، المرجع السابق، ص. 58.

[37] - المهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص. 134.

أرض سهلة متصلة الانفراج لا يرى الناظر فيها جبلاً عالياً ولا شرفاً مطلاً إلا على بعد منها وعلى مسير أربع مراحل يرى جبالاً لا تبين..."[38].

ولم يكن خراب القلعة وزوال ذلك البذخ والعمران في لحظة وفترة وجيزة بل استغرقت مدة وتناقصت شيئا فشيئا حتى اضمحلت إلى الزوال، وساهمت في ذلك عدة عوامل واجتمعت عدة أسباب حالت دون استمرارها كعاصمة للدولة الحمادية، لتحل محلها بجاية.

وهو ما أمدتنا به إحدى المصادر بقولها:"... دخل عبد المؤمن بجاية وملكها وملك قلعة بني حماد وهي معقل صنهاجة الأعظم وحرزهم الأمنع فيها نشأ ملكهم ومنها انبعث أمرهم..وخرج علي بن إسحاق من بجاية بعد أن أسس أموره فيها وسار حتى نزل على قلعة بني حماد فملكها وملك جميع تلك النواحي فانتهى ذلك إلى أمير المؤمنين يعقوب فخرج بالموحدين قاصداً مدينة بجاية فلما سمع علي بقدومه خرج له عنها وقصد بلاد الجريد..."[39].

ونستدل بما قاله ابن خلدون في زوال الدول والمدن بقوله:"...فيزول حفظها ويتناقص عمرانها شيئا فشيئا إلى أن يبذعر ساكنها وتخرب كما وقع بمصر وبغداد والكوفة بالمشرق والقيروان والمهدية وقلعة بني حماد بالمغرب وأمثالها فتفهمه وربما ينزل المدينة بعد انقراض مختطيها الأولين ملك آخر ودولة ثانية يتخذها قرارا وكرسيا يستغني بها عن اختطاط مدينة ينزلها فتحفظ تلك الدولة سياجها وتتزايد مبانيها ومصانعها بتزايد أحوال الدولة الثانية وترفها وتستجد بعمرانها عمرا آخر كما وقع بفاس والقاهرة لهذا العهد والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق..."[40].

وإلى القلعة ينتسب علماء أعلام وأدباء عظام ممن أنبتتهم تربتها أو آوتهم فأكرمت وفادتهم فاستوطنوها أو نبت بهم فتغربوا عنها، وعطروا بمآثرهم ذكرها[41].

ومن هؤلاء الأعلام أبو الفضل يوسف بن محمد المعروف بابن النحوي أصله من توزر، ولكنه كان ثاويا في أهلها، أخذ عن شيوخها ثم بث علومه بها ودفن في تربتها، شرق في طلب العلم فاتصل بإمام المالكية علي بن محمد الربعي اللخمي القيرواني نزيل صفاقس فأخذ عنه الفقه وصحيح البخاري ولما جاءه سأله ما جاء بك؟ قال: جئت لأنسخ تأليفك التبصرة فقال: إنما تريد أن تحملني في كفك إلى أهل المغرب...، ويذكر القاضي عياض في ترجمته للحسن علي بن محمد الربعي المعروف باللخمي.

---

[38] - الإدريسي، المصدر السابق، ج. 1، ص. 79.

[39] - المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ج. 1، موقع الوراق http://www.alwarraq.com المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني، 2007، ص ص. 58، 59، 79.

[40] - ابن خلدون، المصدر السابق، ج. 1، ص. 143.

[41] - أحمد حماني، "عباقرة من رجالنا تزهى بهم عواصمنا الصنهاجية"، مجلة الأصالة، إصدار وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، العدد 19، الجزائر، 1974، ص. 245.

القيرواني، نزل صفاقس عند تعرضه لطلبته: "... أخذ عنه أبو عبد الله المازري، وأبو الفضل ابن **النحوي** وشيخنا أبو علي الكلاعي، وعبد الحميد الصفاقسي، وعبد الجليل بن هور وغير واحد[42].

ويذكر مفتي الجزائر بعد الاستقلال، ورئيس المجلس الأعلى الإسلامي في بداية السبعينيات من القرن الماضي، أن علمه كله في هذا الكتاب، نقلا عن بعض المصادر التي تعرضت إليه[43].

ومن بين العلماء الذي درس بالقلعة وأخذ عن شيوخ أجلاء، **أبو عبد الله محمد بن الفرج المازري المعروف بالذكي**، وكان هذا آية من آيات الله وأصله من صقلية، ولكنه سكن القلعة، وبث فيها علومه، ولقي جلة شيوخ القيروان فشهدوا بحفظه وذكائه، ولقد ذكره القاضي عياض في كتابه بقوله:" أبو عبد الله محمد بن الفرج المازري المعروف بالذكي، صقلي الأصل، وسكن قلعة بني حماد، ثم خرج إلى الشرق، فدخل العراق، وسكن أصبهان إلى أن مات بها فعداده فيها. وكان فقيهاً حافظاً، مدركاً نبيلاً، فهماً متقدماً في علم المذهب واللسان، متفنناً في علوم القرآن، وسائر المعارف، أخذ عن شيوخ بلده، وأخذ بالقيروان عن السيوري، والخرقي وغيرهما. وحكي أن السيوري كان يقول: ابن أبي الفرج، أحفظ من رأيت. فقيل له: تقول هذا، وقد رأيت أبا بكر بن عبد الرحمن، وأبا عمران الفاسي. فقال: هو أحفظ من رأيت. وكان القاضي أبو عبد الله بن داود يقول: شيخنا الذكي، أفقه من أبي عمران، ومن كل مالكي، حتى فضله على إسماعيل بن إسحاق القاضي. تفقه به في المغرب أبو الفضل ابن النحوي، والقاضي أبو عبد الله بن داود، وحمل عنه أدب كثير، وعلم جمّ، وألّف في علوم القرآن كتاباً كبيراً سماه **الاستئلاء**. وله تعليق كبير في المذهب، مستحسن، وخرج على أنه ألف سؤال، وعنده تفقه أبو

الفضل ابن النحوي، وأبو عبد الله بن داود القاضي، وغيرهما.

ولما صعد إلى المشرق ودخل بغداد، وجد مذهب مالك بها قد درس وقل طالبه. فلم يحصل له بالفقه رئاسة هناك. ولتقدم أهل المشرق في صنعة النظر، وحذق الجدل الذي بذلك تقدم أئمتهم، فرس في النحو وعلم لسان العرب، واستصحبه القيم بالخلافة بها. إذ ذاك الملك العادل، أبو الفتح. واستصحبه إلى أصبهان، لتدريس بقية الأدب، فذهب علمه بالسنة هناك ضياعاً. ولم يبلغني أن أحداً أخذ عنه هناك، ويقال إن سبب هذا دعاء الشيخ أبي القاسم السيوري عليه. فإنه يحكى أنه كان كثيراً ما يسيء الأدب معه، ويتبع سقطاته، حتى جمع من فتاويه نحو ثلاثين مسألة ادعى عليه الخطأ فيها، فأنكرها الشيخ، وكتب إلى أصحابه لا تسمعوا منه فإنه كذاب. فأسقط بهذا، وتوفي بأصبهان بعد الخمس، بعد أن جرت

---

[42] - القاضي عياض، المصدر السابق، ج. 2، ص. 69.

[43] - ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق محمد بن أبي شنب، قدم له عبد الرحمن طالب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص. 300. ؛ أحمد بابا التمبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، مطبعة المعاهد، مصر، 1351هـ/1932م، ص349.؛ أحمد حماني، المرجع السابق، ص. 245.

له بها حروب، في مطالبة الغزالي. وكان أحد القائمين عليه هناك، لكنه حمي عنهم فلم يصلوا إلي. والله أعلم بالسرائر. لا إله غيره"[44].

وقد انتهى أبو الفضل من تجواله بالمغرب وعاد من فاس إلى القلعة سنة 394هـ واخذ نفسه بالتقشف فترك اللين من اللباس والأكل، ولبس جبة صوف إلى ركبته، وكأن تقشفه ذهب بحدته وسرعة دعوته على خصومه[45].

حيث تذكر المصادر هذا التقشف والزهد:"...كانت جبته إلى ركبته فمر يوما بالفقيه أبى عبد الله بن عصمة المفتي، فلم يسلم عليه لشغل باله فعظم ذلك عليه فلما رجع ناداه محقرا له: يا يوسف فلباه وجاءه فقال له: يا توزري صفرت وجهك ورققت ساقيك وصرت تمر ولا تسلم؟ فاعتذر له فلم يقبل وأغلظ له في القول فقال: غفر الله لك يا فقيه يا أبا محمد وانصرف..."[46].

ولم تغفل تلك المصادر عن ذكر بعض تلامذته، حيث أصبح لهم شأن في العلم والفقه، كأبي عبد الله محمد بن الرمانة رئيس المفتين بفاس، والأخوين الفقيهين أبى بكر ومحمد ابني مخلوف بن خلف الله، والفقيه أبى عمران موسى بن حماد الصنهاجي[47].

ومن آثاره القصيدة المنفرجة التي تنشد في احتفالات المولد النبوي، التي توارثت خلفا عن سلف، حيث ذكرها صاحب عنوان الدراية بقوله:"...وما زالت هذه القصيدة معلومة الإفادة ظاهرة الزيادة..."[48].

ونورد بعض الأبيات منها:

اشتدي أزمة تنفرجي قد أذن ليلك بالبلح
وظلام الليل له سرج حتى يغشاه أبو السرج
وسحاب الخير لها مطر فإذا جاء الإبان تجي

وقال أيضا:

وخيار الخلق هداتهم وسواهم من همج الهمج
وإذا كنت المقدام فلا تجزع في الحرب من الرهج

---

[44] - القاضي عياض، المصدر السابق، ج. 2، ص. 68.

[45] - أحمد حماني، المرجع السابق، ص. 247.

[46] - ابن مريم، المصدر السابق، ص. 303.؛ التمبكتي، المصدر السابق، ص ص. 350، 351.

[47] - التمبكتي، المصدر السابق، ص. 351. ؛ ابن مريم، المصدر السابق، ص. 303.

[48] - الغبريني، عنوان الدراية، موقع الوراقhttp://www.alwarraq.com المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني، 2007، ص. 336.

* **عثمان ابن أبي سوار**، ذكره القاضي عياض بأنه من أهل قلعة حماد، ومن فقهائها. وتفقه بشيوخ جهته. وأخذ عن عبد الرحيم بن العجوز السبتي، من أهل بلدنا[49].

* **أبو حفص عمر ابن أبي الحسين ابن الصابوني** من أهل قلعة حماد أيضاً. زعيم فقهائها في وقته. وطال عمره، فانفرد برئاسة جهته، وكان فقيهاً نظاراً محققاً، حسن الفهم جيد الكلام في الفقه[50].

* **أبو القاسم ابن أبي مالك من العرب**، وكان سكناه بجهة القلعة. قال ابن شرف في تاريخه: كان يوصف بفقه وورع، وزهادة ومروءة وخير. وورد القيروان رسولاً من قبل ابن حماد، على المعز، سنة ثمان وثلاثين، فخاطب بأبلغ خطاب، وأحسنه، وألطفه. ولقي مسرة من السلطان، ولا أنفق في هذه المدة إلا ماله، ولا اقتات إلا منه[51].

وممن تغنى بالمسيلة والقلعة وقال عنها شعرا، **محمد بن هاني** الأندلسي[52] ولد سنة 320هـ/ 931هـ، بالبيرة، نسبة إلى لقبه البيري، في حين تذكر المصادر أن أباه انتقل من المهدية إلى الأندلس، فعاش مدة باشبيلية ثم استقر بمدينة البيرة[53].

ويرجح المؤرخ محمد اليعلاوي في إحدى دراساته أنه بدأ حياته بالزاب سنة 348هـ، وبقي بالمسيلة خمس سنوات على الأقل، فأول قصيدة ينظمها بالقيروان المنصورية قد تؤرخ بسنة 353هـ/ 964هـ، على أنه من الممكن أن يكون قد نظم قصائد في مدح المعز وهو لا يزال بالمسيلة[54].

وذهب صاحب الدراسة إلى حد القول في احتمالاته أن إقامته كانت في الزاب وكان ينتقل بين الحين والآخر إلى القيروان يطلب من الخليفة، مستنتجا ذلك من خلال شعره بقوله:

ولولا قطين في قصى من الو ى لما كان لي في الزاب من متلوم

وقال أيضا:

فتركت أرض الزاب لا يأسى أب لابن، ولا يبكي البعول حلائل.

---

[49] - القاضي عياض، المصدر السابق، ج. 2، ص. 63.

[50] - نفسه.

[51] - نفسه.

[52] - هو أبو القاسم محمد بن هاني الأزدي الإلبيري أباه يسمى هاني، وتحجم المصادر عن ذكر تفاصيل حياته والده، وتذكر أنه انتقل من المهدية إلى الأندلس فعاش مدة باشبيلية ثم استقر بالبيرة، ويذهب محمد العلوي إلى القول أنه هو الآخر داعيا شيعيا، يكون قد تعلم مبادئ الدعوة وأساليب الدعاية بالمهدية أو القيروان، ثم انتقل إلى البيرة حيث سبقه جد من أمراء الزاب، حمدون الجذامي، وأنجب محمد بالبيرة وترعرع باشبيلية ونطق بالشعر هناك، ثم انتقل إلى بلاد المغرب. يراجع: محمد اليعلاوي، المرجع السابق، ص ص. 51، 52.

[53] - نفسه.

[54] - نفسه.

ورقت حواشي الدهر بالمسيلة وطاب العيش وعرف الناس عوائد الرفاه والأناقة حتى صاروا يستخشنون الناس النسيم العليل لفرط حساسيتهم[55].

ويواصل المؤرخ التونسي في حديثه عن ابن هاني فيذكر أنه مدح ثلاثة من أمراء الدولة الحمادية بالمسيلة، هم الأخوين جعفر ويحيى، يضاف إليهم إبراهيم ابن جعفر[56].

أبو العباس أحمد بن محمد بن حرب المقري: ينسب إلي المسيلة، بمصر قرأ القرآن ورحل إلى بَطلَيوس فلقي بها أبا بكر محمد بن مزاحم الخزرجي وقرأ عليه أبو حميد عبد العزيز بنَ علي بن محمد بن سلمة السيحاني المقري[57].

وخلاصة القول أن الحضارة الحمادية لم تنحصر في أشير والقلعة، بل كانت هاتين المدينتين جزء من بحر عميق، يطول الغوص فيه ولا يسمح لنا هذا المقام بالتطرق إلى كل جوانب الحضارة الحمادية في حقبة من الزمن، وامتدت إلى كثير من البلدان، بدأت بأشير والقلعة، وانتشرت فيما بعد إلى ببجاية وتلمسان وغرناطة[58] فهي خلاصة مجهوداتهم وتضافر أعمالهم، ومواصلة السير في البناء والتشييد وتطلعهم إلى العلو والرقي الحضاري، فكونوا حكومة بربرية وسط بلاد البربر، ففي عهدهم اتسع مجال الفلاحة والعمارة ما بين المدن والقرى والمداشر حولها البساتين والمزارع تتخللها السبل وتخترقها القوافل ذهابا وإيابا، وازدهرت العلوم وجاءها العلماء من كل مكان كما ذكرناه سابقا، والتي ورثته مدرسة بجاية فيما بعد لتكون أكبر المراكز الإسلامية التي لعبت دور كبير في نشر الحضارة الإسلامية خلال العصر الوسيط.

---

[55] - نقلا عن محمد اليعلاوي، المرجع السابق، ص. 53.

[56] - نفسه، ص ص. 54، 55.

[57] - ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج. 4، ص. 107.

[58] - حيث يذكر ابن خلدون: أن باديس ابن حبوس هو الذي مصر غرناطة واختط قصبتها وشيد قصورها وحصونها وآثاره في مبانيها باقية لهذا العهد. يراجع: العبر، المصدر السابق، ج. 4، ص. 158.